

عَرَبِيَّتَنَا... لُغَةٌ فَرِيدَةٌ مِنْ نَوْعِهَا

بقلم : محمد السيد علي بلاسي

يقول : «ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولانعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي» (2).

2 — البيان : قال تعالى : ﴿وإنه لتنزيل ربِّ العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين﴾ (الشعراء : 192 — 195) فأخبر المولى سبحانه وتعالى — عن القرآن بأنه ﴿بلسان عربي مبين﴾، ووصف هذا اللسان بأبلغ ما يوصف به الكلام، وهو البيان. ولما خصَّ — سبحانه — هذا اللسان بهذه الصفة، عَلِمَ أن سائر اللغات قاصرة عنه، وواقعة دونه...

فإن قال قائل : قد يقع البيان بغير اللسان العربي ؛ لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين. قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة

إن لغة اختارها الله تعالى لتكون وعاءً لكتابه الخالد، لاشك لغة تتربّع على عرش الألسنة واللغات. وتلك مفخرة لنا نحن العرب، غبطنا عليها أهل الفكر والثقافات — شرقيين أو غربيين...

يقول المستشرق الفرنسي ماسينيون : «وباستطاعة العرب أن يفاخروا غيرهم من الأمم بما في أيديهم من جوامع الكلم التي تحمل من سمو الفكر وأمارات الفتوة والمروءة ما لا مثيل له» (1).

ولا عجب، فلقد حباها الله من السمات والخصائص ماجعلها فريدة من نوعها بين اللغات ! من هذه الخصائص :

1 — السعة التي لا حد لها : حتى كادت مفرداتها لا تحصى ؛ مما حمل الشافعي — رحمه الله — أن

1 — من مقال للمستشرق الفرنسي ولويس ماسينيون، بعنوان : «مقام الثقافة العربية بالنسبة إلى المدينة العالمية»، نشرته له جريدة الأهرام القاهرية، عدد 1949/1/26 م.

2 — (امام الشافعي : الرسالة، ص 42).

العربية قد يُغرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده، فهذا أحسن مراتب البيان؛ لأن الأبيكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده، ثم لا يسمى متكلماً، فضلاً عن أن يسمى بيناً أو بليغاً. وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط؛ لأننا لو احتجنا إلى أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسميات بالأسماء المترادفة. فأين هذا من ذلك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ماللغة العرب؟ هذا ما لاخفاء به على ذي نُهيبة... (3)

3 — العربية في مجموعها كما يقول فرجسون : لغة محافظة تنغير في بطة، فدرجة الاختلاف — مثلاً — بين عربية القرن الثامن وعربية القرن العشرين أقل قلة واضحة منها بين الإنجليزية هذين القرنين.

ومما يدل على ذلك أن العربية حافظت على الحروف والحركات السامية القديمة أكثر مما حافظت عليها أية لغة سامية أخرى.

هذه الروح المحافظة فعلت الكثير في الإبقاء على اللغة دون تغيير طوال العصور، كما أنها أضعفت تأثير الزمن؛ فأمكن للأدب العربي القديم أن يقرأ اليوم في سهولة نسبية، وقللت أيضاً من آثار البيئات المختلفة، فأمكن للعرب في مختلف أنحاء العالم العربي أن يتحدث بعضهم إلى بعض دون صعوبة ظاهرة، كما وحدث هذه الروح المحافظة أيضاً من التباين بين العربية الفصحى ولهجات الكلام، فإذا محصنا هذه اللهجات تمحيصاً دقيقاً تبين لنا أنها لاختلفت اختلافاً كبيراً عن اللغة المكتوبة (4).

4 — الإيجاز: ويعتبر من أبرز خصائص اللغة العربية، فهي لغة قوية قاطعة ورثت حيويتها عن الأيام القاسية التي قضتها في الصحراء، فالكلام القوي موجز بطبعه، والعربية مولعة بالإيجاز الذي يعده البلاغيون المقياس الحق لبلاغة الكلام... والعربية على إيجازها لا تنقصها دقة التعبير، فهي قادرة بأساليبها على التعبير عن أخفى الأفكار، وأبهر ظلال المعاني (5)، وتلك ميزة تكاد تنفرد بها لغتنا الخالدة، وتعد من خصائصها. ولقد أطلق الدكتور عثمان أمين على هذه السمة اسم: (خاصية التلوين الداخلي) الذي كأنما يرسم للماهية الواحدة بالأطراف والظلال، صوراً ذهنية متعددة تغنيها باللفظ الواحد عن عبارات مطولة تحدد بها المعنى المقصود.

وتظهر تلك الميزة جلياً في كثير من الألفاظ المترادفة الدالة على الشيء الواحد، منظوراً إليه في مختلف درجاته وأحواله، ومتفاوت صورته وألوانه. فالظما، والصدى، والأوام، والهيام، كلمات تدل على العطش، إلا أن كلا منها يصور درجة من درجاته: فانت تعطش إذا أحسست بحاجة إلى الماء، ثم يشتد بك العطش فتظماً، ويشتد بك الظماً فتصدى، ويشتد بك الصدى فتثوم، ويشتد بك الأوام فتبهم. وإذا قلت: إن فلانا عطشان، فقد أردت أنه بحاجة إلى جرعات من الماء، لا يضره أن تبطيء عليه، أما إذا قلت: إنه هائم، فقد علم السامع أن الظماً يرح به حتى كاد يقتله... وهذا على حين أن الفرنسي لا يستطيع أن يؤدي هذا المعنى إلا في ثلاث كلمات إذ يقول:

«مات من الظماً: Mourant de soif»
أو في سبع كلمات ليكون المعنى أوضح فيقول:

3 — العلامة السيرطي: المرمر، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرون، 1322/1، ط. عيسى البابي الحلبي بمصر.
4 — د. شعبان عبد العظيم: نيس من وحى اللغة، ص 184، 185، ط. أولى سنة 1402 هـ — الأمانة بمصر.
5 — د. السيد يعقوب بكر: دراسات في فقه اللغة العربية، ص 15، ط. بيروت سنة 1969 م.

«على وشك أن يموت من الضمأ : Sur le point de mourir de soif»

ففي كلمات العربية إيجاز يجعل من الكلمة الواحدة جملة كاملة. (6)

النورمانديين المسيحيين الذين استولوا عليها من العرب المسلمين عام 1090 م، وعلى الرغم من جوارها لايطاليا ؛ مما يدل ذلك — دون ريب — على القوة الفذة التي في العربية.

ويمكن أن نسوق أسباباً عدة لهذا الحدث الرائع في تاريخ اللغات، والسبب الرئيسي هو بالطبع : انتشار الاسلام، فهذا الدين الفعال المؤثر هو القوة الأساسية التي نشرت العربية أولاً ثم حفظتها خلال العصور...

وكما استطاع الاسلام أن يتحدى عقائد أخرى في أوطانها استطاعت لغة كتابه الكريم أن تتحدى لغات أخرى في بلادها... وزاد من انتشار العربية عوامل أخرى : فقد كانت لغة الحكام العرب، واللغة الرسمية للإدارة، وكانت لغة التجار العرب الذين أدوا دوراً هاماً في نشر الاسلام والعربية حيثما ذهبوا.

وثمة سبب هام لانتشار العربية هو : تفوقها اللغوي ؛ فالعربية لغة طيبة أعانها إيجازها ودقتها على أن تسد حاجات البسطاء المثقفين من الناس، ومطالب البيئات البدائية والمتحضرة (9).

6 — الاعراب الكامل : يكاد يجمع العلماء على أن الاعراب ظاهرة لغوية اتسمت بها العربية من قديم الزمان ومنذ نشأتها، لذا كانت أدق اللغات تعبيراً وتنسيقاً لجمالها. وإن كان قد حظي بالاعراب بعض اللغات الأوربية كالإيونانية واللاتينية والألمانية، إلا أنه ليس بالنظام الكامل كما في العربية. كما أن معظم لغات أوروبا الحديثة الآن تخلو من الاعراب، فلا يميز فيها بين الرفع والنصب والجر، وإنما يقوم مقامها إلحاق

5 — العربية لغة فاتحة تحمل أينما حل أهلوها : يقول إسرائيلي ولفنسون : ومهما يكن من شيء فإن الانقلاب العظيم الذي أصاب اللغة العربية، إنما حدث عقب ظهور الاسلام، فقد انقلبت إلى لغة عالمية تتكلم بها شعوب كثيرة جداً. فقد نزع عرب الحضرة والبادية من أطراف الجزيرة — تحت قيادة أبطال المسلمين — إلى جميع نواحي المعمورة، وفتحوا الممالك والأمصار، فكانت اللغة العربية تسيرهم خطوة خطوة. وقد كان القرن الأول للهجرة عظيماً من كل وجه ؛ فقد ارتفع شأن اللغة العربية ارتفاعاً لا نظير له، وامتدت الفتوح الاسلامية امتداداً كبيراً جداً، حتى وصلت إلى الهند من ناحية وإلى بحر الظلمات من ناحية أخرى. (7)

فهذه فتوح لغوية بكل ما في الكلمة من معنى، وهي حقيقة يؤكدها المؤرخون، ويعرفونها كما يعرفون أبناءهم ؛ فنحن لانعرف لغة أثرت بلغتها أكثر مما أثرت الأمة العربية الفاتحة، ففي مصر وفي العراق وفي الشام وفي المغرب وفي الأندلس وفيما شاء الله من بقاع وأصقاع، أصبحت اللغة العربية سائدة سيدة، واكتسحت اللغات الأصلية لهذه البلاد ولم يعد لها شأن ولا ذكر ؛ وما ذلك إلا لعظمة هذه اللغة وقدرتها على الفتح والانتشار (8)، وحسبنا دليلاً على هذا : بقاء العربية في «مالطة» إلى اليوم على الرغم من

6 — د. عبد الغفار حامد هلال : علم اللغة بين القديم والحديث، ص 321، ط أول سنة 1979 م — دار الطباعة الخمدية. نقلاً عن د.

عثمان أمين : فلسفة اللغة العربية، ص 58، 59.

7 — د. إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية، ص 214، 215 — بتصريف يسر س. ط. دار العلم بيروت.

8 — الأستاذ عبد الحفي حسن كمال : حروف المعاني، ص 4، 5، الطبعة الأولى.

9 — د. شبان عبد العظيم : قيس من وحي اللغة، ص 186 — 188، فراجعته نجد مزيداً من التفصيل.

العرب يقبلون بعض الحروف للتخفيف، مثل قولهم في موعاد : ميعاد، وهما من الوعد، إلا أن اللفظ الثاني أخف... كما رأيناهم يتركون الجمع بين الساكنين، مع أنه قد يجتمع في اللغات الأعجمية ثلاثة سواكن... وكذلك لم نجد تنافرا بين حروف كلمات العربية، كاجتماع الغين مع الحاء، والقاف مع الكاف، وغيرهما مما هو موجود في كثير من اللغات؛ ولذا فلقد كان للعربية فضل من جهة فصاحة مفرداتها، فليس في كلماتها الجارية في الاستعمال ما ينقل على اللسان، أو ينبوعه السمع. وللعرف بحسن صياغة الكلام أن يصنع من مفرداتها المأنوسة الوضوء قطعاً أو خطأً أو قصائد تسترق الأسماع وتسحر الألباب» (17)...

13 — حروف اختصت بها العربية : وهي الحاء والطاء والضاد...

14 — انفردت العربية بالألف واللام التي للتعريف : مثل : الانسان، والكتاب، والقلم...

15 — استخدام الجمل في غير أبوابها في اللغة العربية : يكثر في اللغة العربية استعمال الألفاظ والتراكيب في غير ما وضعت له لأغراض بلاغية، كتوضيح المعنى والمبالغة في تقريره والابانة عنه، أو الإشارة إليه في قليل من اللفظ، أو عرضه في صورة جذابة.

فقد يستخدم اللفظ أحيانا في غير ما وضع له لتشبيه أمر بأمر في صفة ما، ويسمى هذا «مجازا بالاستعارة»، مثل : فلان يلتم العلم التهاما.

كما يستخدم اللفظ أحيانا في غير ماوضع له

لعلاقة أخرى غير المشابهة بين المعنيين، كعلاقة السببية والمسببية والمجاورة والكلية والجزئية واعتبار ماكان عليه الشيء أو ما يؤول إليه... وهلم جرا. فمثال باعتبار ما يؤول إليه قوله تعالى : « إني أراي أعصر خمرا». (يوسف 36) أي عنياً يؤول إلى خمرة. ويسمى هذا عند علماء البلاغة بـ «المجاز المرسل».

كما تطلق العبارة أحيانا ويراد بها ما يترتب على مدلولها ويلزمه. ويسمى هذا «كناية» في عرف علماء البيان. وذلك كقولك في الكناية عن الرقة وشدة التأثير : مسّ الحرير يدمي بنانه، وعن الترف : تؤوم الضحى، وعن الكرم : اليمن يتبع ظله.

فلأبواب السابقة جميعها فضل كبير في سمو الأساليب العربية وشدة تأثيرها في النفوس، وقوة بلاغتها، وحسن بيانها، ومرونة تعبيرها، ومطابقتها لمقتضيات الأحوال، وماوصلت إليه من مكانة منقطعة النظير في ميادين الشعر والخطابة والنثر الفني ومختلف فروع الآداب.. (18)

16 — الهمز في عرض الكلام، مثل : قرأ، ولايكون في شيء من اللغات إلا ابتداء... (19)

17 — زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى في العربية : ويتضح ذلك في مواطن كثيرة فيها منها : المبالغة : مثل : اعشوشب المكان، إذا كثر في العشب. ومنها : التسوية والتقيح : مثل : امرأة سيمعنة نظرتة، لكثيرة التسمع والتنظر...

18 — التوهم والايهام : ومن سنن العرب التوهم والايهام، وهو أن يتوهم أحدهم شيئا، ثم يجعل ذلك كالحق، منه قولهم : وقفت بالرّبع أسأله. وهو أكمل

17 — الشيخ محمد الحضر حسين : دراسات في العربية وتاريخها، ص 17، 18.
18 — د. علي عبد الواحد والي : فقه اللغة، ص 224، 226، 227 — بتصرف —
19 — العلامة السبوي : التزهر، 1/329.

يأذامية بالعلياء فالسند
أقوت وَطال عليها سالف الأمد

فخطب ثم قال : أقوت ... أو أن تخاطب المخاطب
ثم يرجع الخطاب لغيره، كقوله تعالى : ﴿فإن لم
يستجيبوا لكم﴾ الخطاب للنبي — صلى الله عليه
وسلم — ثم قال للكفار : ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم
الله﴾. يدل على ذلك قوله : ﴿فهل أنتم مسلمون﴾
(هود : 14) (23).

23 — التعويض : وهو إقامة الكلمة مقام الكلمة،
كإقامة المصدر مقام فعل الأمر، نحو قوله — ﷺ —
: «صبراً آل ياسر»، والتقدير : اصبروا. وإقامة
الفاعل مقام المصدر، كقوله تعالى : ﴿ليس لوقعتها
كاذبة﴾ (الواقعة : 2) أي تكذيب... (24)

24 — الاعتراض : وهو أن يعترض بين الكلام
وتمامه كلام. مثل قول الشاعر :
إن الثانين — وبلغتها —
قد أحوجت سمعي إلى ترجمان..

25 — محاكاة ألفاظ العربية لمعانيها : وفيه العجب ؛
فالعربية لغة شاعرة في كلماتها وتركيباتها، وفي
حروفها وأصواتها وصورتها. فمثلاً كلمة : شدّ من
قولك : شد الحبل. فالشين في هذه الكلمة بما فيها
من التنشي تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل
استحكام العقْد، ثم يليه إحكام الشدّ والجدب
والعقد، فيعبر عنه بالدال التي هي أقوى من الشين،
لاسيما وهي مدغمة، فهو أقوى لصنعها وأدل على

عقلا من أن يسأل رسماً، يعلم أنه لا يسمع ولا يعقل،
لكنه تفجّع لما رأى السكّن رحلوا، وتوهم أنه يسأل
الربيع أين انتأوا، وذلك كثير في أشعارهم (20).

19 — الفرق بين الأضداد بالحرف أو السكون أو
الحركة : وذلك شائع في العربية. فالفرق بالحرف
كقولهم : يَدَوِي من الداء، ويَدَاوِي من الدواء.
والفرق بالسكون لقولهم : لُعْتَة إذا أكثر اللعن، ولُعْتَة
إذا كان يُلْعَن. أما الفرق بالحركة فكقولهم : يُخْفِر
إذا نقض، من أخفر، ويخْفِر إذا أجاز، من
خَفَرَ (21).

20 — الترخيم في النداء، نحو : يا حار،
في : يا حارث. ويا مال، في : يا مالك.

21 — الفرق بالحركات وغيرها بين المعاني : يقال
لآلة الرمي : مِرْمَى، ولمكان الرمي : مِرْمَى...
وللإناء يحلب فيه : مِحْلَب، ولمكان
الاحتلاب : مَحْلَب... ويقال : امرأة حامل —
يحذف اءاء — ؛ لأن الرجل لا يشركها في حمل
البطن، ويقال : امرأة حامله — بالهاء — إذا حملت
على ظهرها شيئاً؛ لأن الرجل يشركها في هذا
الحمل... كما يقال : امرأة مرضع — يحذف اءاء —
إذا كان لها ولد ترضعه، وامرأة مرضعة — بالهاء —
عندما تلقم الولد ثديها ؟ فما أجمل العربية
وأدقها (22)...

22 — الالتفات : وهو أن تخاطب الشاهد، ثم تحول
الخطاب إلى الغائب، أو تخاطب الغائب، ثم تحوله إلى
الشاهد، كقول النابغة :

20 — المصدر السابق : 336/1.

21 — المصدر السابق : 336/1.

22 — الأمير/ أمين آل ناصر الدين : دقائق العربية، ص 14، 15، ط 2 بيروت سنة 1968 م.

23 — العلامة السيوطي : الزهر، 334/1 وهامشها.

24 — المصدر السابق : 337/1، 338 — بصرف —.

المعنى الذي أريد بها...

29 — نظم للعرب لايقوله غيرهم : كقولهم : عاد فلان شيخا، وهم لم يكن شيخا قط. وكقولهم عند المدح : قاتله الله. ما أشعره ؟ فيهم يقولون هذا، ولا يريدون وقوعه... (27)

30 — ولا بأس في أن تلحق بخصائص العربية : أن الذي يتضلع من هذه اللغة ويقف على أسرارها ودقائقها لايزال يعني الازدياد من فوائدها، وكلما سار شوطاً أخذه اليأس من البلوغ إلى غايتها. أما الذي لم يقف إلا على جزئياتها فيخيل إليه أنه أصبح باقعة الدهر، وأن جهاذة اللغة وأقطاب الأدب وفحول الشعراء إنما هم عيال عليه... والله في خلقه شئون (28).

وبعد، فقل لي بربك : أي لغة من لغات العالم لها ما للعربية من سمات وخصائص ؟ ! وصدق الفارابي حيناً قال عنها : «هذا اللسان كلام أهل الجنة، وهو المنزه من بين الألسنة من كل نقیصة، والمعلی من كل خمیسة، والمهذب مما يستهجن، أو يستشنع، فبني مباني باين بها جميع اللغات» (29).

ولعل هذا كله، هو الذي جعل من الاستحالة بمكان ترجمة ألفاظ القرآن الكريم إلى لغات أخرى، كما كان من الكتب السماوية الباقية ؛ إذ كيف يترجم القرآن باللفظ، وهو بالعربية — التي بها كل هذه الميزات — إلى لغات أخرى عارية من كل هذه الخصائص والسمات ؟ ! !

فكأن حروف الكلمة في العربية مقسمة على تقسيم الأحداث، وهكذا جميع كلمات العربية، فإن أنت لم تلحظ ذلك فيها، فأحد أمرين — كما يقول ابن جنبي — :

1 — إما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيتعذر بك فكرك عنه.

2 — أو لأن الأول — أي القدماء — وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر ؟ (25)

26 — العروض : فهو ميزان الشعر، وللغرب أوزان — وضعها الخليل — حسدنا عليها جميع الأمم !

27 — تركيبات خاصة في العربية : وذلك كذكر الواحد والمراد الجمع، كقولهم للجماعة : ضيف، قال تعالى : ﴿هؤلاء ضيفي﴾ (الحجر : 68)، والمراد ضيوف لضيف واحد... وكذكر الجمع والمراد واحد، كقوله تعالى : ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾. (الحجرات : 4)، والنادي واحد (26)...

28 — أوزان خاصة للعربية : يكثر ورود بعض الأوزان في اللغة العربية، أو يطرد ورودها فيها، للدلالة على معان خاصة. فمن ذلك أوزان أفعال الماضي والمضارع والأمر وأوزان اسم الفاعل وصيغ المبالغة والصفة المشبهة واسم المفعول وأفعال التفضيل والتعجب... وهذا مما لا يوجد له نظير في اللغات...

25 — علامة اللغة/ابن حمي : الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، 2/163، 164، ط 2 — دار الفدى للطباعة والنشر بيروت. وتزيد من التفصيل والامتاع حول هذا الموضوع راجع المصدر نفسه 2/145 — 168، 264/3 — 269.

26 — العلامة السيوطي : المرهر، 333/1.

27 — المصدر السابق : 330/1، 331.

28 — د. شعبان عبد العظيم : قيس من وحي اللغة، ص 190.

29 — العلامة السيوطي : المرهر، 343/1.